صفحات الذكريات (*)

كنت أجلس إلى أبى الروحى وأستاذى المرحوم الدكتور محمد عبد الله محمد، وقد بلغ التسعين .. أتلو عليه بعضاً من أشعاره التى نجحت - بعد مجاهدة معه - فى نشرها فى ديوانيه " العارف " و " الطريق " .. فجرت عينى فى ديوان " الطريق " .. على أبيات من قصيدة " كعك العيد " .. أخذت أتلوها عليه وهو مستغرق - وأنا معه .. تقول الأبيات :

كانت أمى قبل يوم العيد
تجهز الكعك وكنا نشترك
إلى ثلاث من صبايا الغيد
أنا وطفلان وكنا نعترك
كانت أمى بابتهال وعتاب
ترقب الكل بفهم وحذر
هل جمال الكعك أن لا يؤكلا
كان يملأ العيد من صنعة أمى
كان مولودا سعيدا ليديها
غاص ما فى العام من هم وغم
وأعاد البشر منها وإليها
لم تكن تطلب منا شكرها

---

* الجمهورية ٢٠٠٢/١٢/٩

مضيت مستغرقا فى التلاوة، منصرفاً إلى الأبيات والصفحات، مخافة أن أخطئ النحو أو الجرس، لتحين منى التفاتة إلى الشيخ المهيب الذى فارقت أمه دنيا الناس من نحو ثمانين عاما، فإذا بدموعه تجرى سخينة .. توقفت عن التلاوة مبهوتا، مأخوذا بجلال اللحظة واحتراما للتداعيات التى لا بد مرت بخاطر الشيخ الكبير حتى أجرت دموعه مدرارة .. أعرف أنه كان يحبها حبا عميقا لم يفلح صعر سنه وقت أن فارقت، فقد كان دون العاشرة، ولا أفلحت الثمانون عاما التى مضت على وفاتها، فى خفوت ذكراها وإجلالها فى صفحة وعيه .. ولكن، ما كل هذه الدموع ؟! .. إلى أى آفاق طارت جوانح الشيخ، وإلى أى السموات حلقت ؟!.. وكيف ينبعث هكذا فجأة ماض ظننت أن السنوات الطوال كفيلة - ومع تقدم العمر وجفاف الينابيع - بأن يتوارى من صفحة الوعى، وأن ينطمر فى زوايا النسيان ؟!

واقع الأمر أن كل آدمى، صغيراً كان أو كبيراً، متقدماً أو متخلفا .. يصحب حتماً ماضيه معه .. هذا الماضى مخزون بصفة عامة فى ذاكرته كأفكار، وصور ومشاعر .. وفى بدنه كأنسجة وأوعية وأعصاب .. لا يمكن لآدمى أن يلاقى يومه وغده بغير هذا المخزون .. لايمكنه أن ينسلخ عنه مهما أجهد نفسه فى تنحيته جانبا أو تكلف التخلص منه أو مقاومته . ونحن دائما أردنا أو لم نرد - نقدم ماضينا إلى قابلنا ملوناً بألوان الذات التى لكل منا : تلك الألوان التى تتجمع وتتراكم ويتداخل بعضها فى بعض ويحل بعضها مكان بعض طوال حياتنا على الأرض، وهى ألوان نتوارث جانبا منها، ونكتسب أغلبها تباعاً من المحيط الذى نعيش فيه .. هذه الألوان تصبح جزءاً منا حين تقبلها ذواتنا وتضمها إلى رصيدها

حيث تبقى إلى أن يطرأ على الذات ما يحملها على التخلى عنها ليأخذ مكانها غيرها !

وألوان الذات هذه تتشابه فى سمات وتختلف فى أخرى لدى الآدميين، فيتشابهون فى عين من ينظر إلى سمة معينة للمشابهة - فيتشابه عنده أبناء نفس العصر أو نفس العنصر أو الأصل أو السحنة أو لون البشرة أو أبناء نفس الوطن أو نفس الحضر أو نفس الريف أو نفس الجيل أو نفس الطبيعة أو نفس الأسرة .. فى داخل هذه الأشياء يقع الانقسام مع الاختلاف والتشابه، نتيجة تشابه أو اختلاف الطبيعة أو الذوق أو التربية أو الظروف .. بل قد يتعرض الفرد الواحد لمثل هذا، فيشبه نفسه فى مرحلة من حياته، ثم يخالفها فى مرحلة أخرى .. واعيا أو غير واع حسب نموه وتدهوره، أو ركوده أو نشاطه، أو حسب تعرضه لتغير شديد فى ظروفه أو استقرار أو ثبات أحواله .

وهذا برغم تراكبه وتركيبه الشديدين - لا يجعل حياة الآدمى معقدة فى نظره، لأنه لا يرى ولا يشهد ولا يواجه ولا يفكر بانتباه وعناية فى " الحالات " التى تجرى داخله أو خارجه - إلا حالة حالة، ولا يشعل التفاته مجموعة " حالات " مطلوب منه علاجها معاً إلا نادرا، وعندئذ يشعر بالضيق والقلق والحيرة .. وهذا الشعور لا يزايله إلا إذا تبددت تلك المجموعة وارتد إلى التعامل مع واقعه شيئا فشيئا كمألوفه ومألوف من سبقوه . ومن هنا كان عشقنا - فيما يبدو - للبساطة والبسيط والتبسط، ونفورنا العام - مما نصفه تارة بالتكلف وتارة بالافتعال والتصنع مما يحتاج فهمه أو تذوقه أو قبوله لإجهاد ومشقة، ومع ذلك فما يبدو بسيطاً مُبَسطاً للآدمى يكون شديد التعقيد لدى زملائه من الأحياء لاختلاف المح وسعة شبكة الأعصاب لدينا عن نظائرها لدى تلك الأحياء !.

ولكن حين يتجاوز الآدمى حدود الحياة العادية المألوفة إلى محاولة استبطان ومعرفة شيء من حقيقة أجهزة بدنه ونفسه وعقله بقدر من التفصيل، وكيف تؤدى وظائفها وتقوم بعملها، وكيف تحتل وكيف تعالج أو يواجه إختلالها ـ .. حين ذلك تختفى تلك البساطة التى نعشقها ويحل محلها تركيب وتعقيد شديد أن مجهولان، ويكتشف الباحث فى ذلك أنه معرض للأخطاء والأخطار فى كل خطوة، وأن ما يسمى بالقوانين العلمية ـ تقريبيات فقط تحتاج دائما لمراجعة الفحص والضبط والمزيد من الفحص والضبط والمزيد من التأكد، لأنها بالمراجعة ربما بانت وظهرت عُيوبها وأخطاؤها وأدى دلك إلى إدحال تعديلات عليها أو إلغائها وإحلال ما يبدو لنا عندئذ بالبرهان الذى يقنعنا أنه اكثر قربا من الصحة والدقة .. وهكذا لايتهى المزيد من الفهم والبحث إلا إلى مزيد من الفهم والبحث بلا نهاية تعرف إذا ما واظبنا على الترام هدا الطريق، أما إدا توقفنا وقنعنا بما وصلنا إليه ـ تبدأ حينئذ مرحلة أو مراحل من الرجعة والتدهور بلا نهاية أو قد تستغرق قروناً إلى أن يفيق الآدمى ويتنبه لما منح من استعدادات وملكات فيعود إلى إستخدامها وتنميتها والاعتزاز بها !

هدا الميل إلى البساطة والتبسيط، هو ميل إلى الكسل واللهو والراحة البدنية والنفسية والعقلية .. ولعل فيه شيئا من الغريزة أو الطبيعة لمقابلة المجهود ومحاولة تعويض ما يبذله الآدمى حينما يصطنع الجد والاجتهاد ـ لكنه ميل فيه قابلية هائلة للمغالاة والإسراف والاعتياد عليها، خاصة بين كتل العاديين الذين تتحكم فيهم عادات السلوك البدنى والعقلى .

وربما أدى تفشى موجة الميل إلى الكسل وتفصيل الراحة واللهو بين هده الكتل إلى سد مافذ وفرص الاجتهاد لدى الأقلية الراغبة

فى الكدح القادرة عليه وصرفهم عنه إلى استحدام ما لديهم من الملكات فى أخذ نصيب أكبر من الترف والمتعة والسلطة والجاه، فوجد الانتكاس العام طريقه الواسع الرحب، واتجه المجتمع بأسره إلى منحدر الهبوط .. لأنه مجتمع بدأ حالة التجمد، فصار كل ما فيه ومن فيه ثابتا مقررا - معروف البداية والنهاية لا يطلب الخيرون فيه أكثر من السمعة الطيبة وسعة الرزق ولا يكف غير الخيرين عن طلب الزيادة إما فى السطوة أو فى المال أو فيهما معا، فيعمل فى هذا المجتمع عوامل التحلل التى تلازم حتما كل ما لا يستمر فى النمو والزيادة والتطور والتطوير، وذلك قد يستمر زمنا يطول إذا ما قسناه بمقاييس الماضى وعولنا على سوابق التاريخ، وآخرها فترة التدهور التى بدأت نذرها من القرن الثالث قبل الميلاد وامتدت إلى القرن السادس عشر .. وبعده !

مواجهة الواقع الماثل الحاضر الذى يستحيل أن نحيط بكل معالمه الداخلية والخارجية وتيسير التعامل معه - هو الوظيفة الأساسية لمخيلة الآدمى - بدونها لا يوجد وعى آدمى ولا تصور ولا فكر ولا استقرار ولا استنباط ولا معان ولا مبادئ عامة ولا علوم ولا فنون ولا لغات بشرية وبدونها ما كانت توجد حضارة ما قديمة أو حديثة - فالخطوة الأساسية التى خطاها الآدمى وفارق بها نهائيا عالم إخوته من الشدييات وانفرد بها وبفضلها بمزاياه الهائلة المكتسحة - هى أنه من بداياته كان يرى الواقع الماثل وكان يمكن لمخيلته أن ترى فى نفس الوقت غيابه أو زواله أو تغييره أو تعديله أو لإبداله ببديل يعمل عمله بصورة أيسر أو أعم أو أفضل .

فالواقع والاحتمال المغاير للواقع أمران متلازمان موجودان معا .. تدعونا المصلحة العاجلة الغالبة عادة إلى إغفال الاحتمال، لكنه قائم فى أفق وعينا بفضل المخيلة التى تتيح خصوبة العقل

وتعدد وتنوع الميول والأحوال إلى غير حد .. تتيح امتزاج فهم الآدمى بعواطفه، وعواطفه بفهمه، امتزاجا ربما يضعف لكنه لا ينقطع ولا يعدم قط، فمن المحال أن تجد أى أثر لآدمى أو لآدميين فى أى مكان أو زمان - سواء أكان عملا فعلا أو تركا أو إنشاء أو زرعا أو صرعا أو سياسة أو اقتصادا أو علما أو فنا أو دينا - خاليا من التلازم بين الوعى والمخيلة وذلك المزج بين الفهم والعواطف .

وجميع الكتب المقدسة المعروفة مليئة بذلك التلازم وذلك المزج، لأنها تخاطب دائما آدميين لا يرون الواقع الماثل الحاضر كله بكل أجزائه وروابطه ولا برونه قط معزولا عن إمكاناته واحتمالاته لدى المخيلة - مما ليس حاضرا ولا ماثلا - كذلك نراه حتى فى الكتب والمؤلفات العلمية الموصوفة بالدقة والانضباط والاحتياط فى عصرنا

لكن الآدمى من قديم - قد مُيِّز بإصرار فى حساب القيم - ما بين الأمانة فى الرواية والعرض، وبين عدم الأمانة - وبين الصدق فى الشهادة والنقل، وبين الكذب أو الافتراء - وبين الحق بأدلته، وبين الباطل بدعاواه وادعاءاته، وبين صحيح الإسناد وبين المنتحل الزائف، وبين ما يغلب على الظن أنه وقع فعلا وله بينة من الصحة . وما هو وهم ومحض خيال، وبين ما هو تاريخى معتمد لا يخالف المعارف السائدة المعترف بها وبين ما هو أسطورى مناه الشعر والقصص والحكاية مما هو متداول من قديم لدى الجمهور - وبين الجاد الذى يمكن أن يرتكن إليه عموم العقلاء لإمكان صحته بحسب الفطنة أو الحس المشترك، وبين الخرافى الذى يتعلق به خيال الأطفال وأشباه الأطفال من رجال ونساء .

وهذا التمييز برغم إصرار الناس عليه - فى كل عصر - يداخله الريبة والشك ليس فقط من جهة كيفية إعمال هذا التمييز وإسناده

فى الغالب إلى الذوق والعاطفة، بل من جهة أساس التمييز وأنه يُبنى عند الناس على الزعم بإمكان عزل الواقع الحاضر الماثل عن الاحتمالات التى يمكن أن تلازمه لدى القائل أو المخاطب، على حين أن الالتزام والمزج اللذين أشرنا إليهما لايمكن فصلهما على الإطلاق . وكل رؤية أو قول أو فعل أو ترك من آدمى تنقل إلى آدمى آخر يخالطها، سواء لدى الناقل أو المنقول إليه، شىء غير حقيقى أو شىء ناقص أو غير كامل - ومع هذا التلاقى والمزج لا مناص من تداخل عير الواقع فى الواقع، وغير الصحيح فى الصحيح، والأسطورى فى التاريخى، والخرافى فى الجاد، وهذا شىء طبيعى فطرى - مالم يتحقق فيه سوء النية أى تعمد تغيير الحقيقة لغاية يعتقد صاحبها أنها مفيدة له أو لفريقه .

فنحن على جميع المستويات دائما نكيل للآخرين من القريبين والبعيدين، ونكتال منهم، خليطاً من معلوم لنا ومجهول، وصحيح وغير صحيح، نأخذه ونعطيه بحكم الاعتياد - على أنه معلوم وصحيح ونستعمله ويستعمله الآخرون وننتفع وينتفعون به بالقدر الذى اعتدنا واعتادوا - على الرضا به حسب مألوف المحيط - نفعا إحصائيا لا نعزو إليه ضررا يمكن أن يحسب عند حساب المنافع والمضار - .. على أنه حينما تسجله الذاكرة وتؤكده وتقيده المخيلة وتزيده، يدخل حتما فى بنية عقائدنا ومعتقداتنا وما هو بديهى وطبيعى لدينا ونعطيه قيمة مطلقة لها تأثيرها الذى نسلم به فى إدراكنا واتجاهنا كله . إن قوة ونفوذ العرف العام والعادة الجارية والتقاليد والسوابق والتواتر يرجعان إلى هذا المصدر، وهما قوة ونفوذ ميكانيكيان ابتداء انتهيا دون أن نحس إلى أن صارا قوة ونفوذ لقيم مهمة من قيم المجتمع البشرى .

ثم لأن بصيرة الآدمى - أياً كان مبلغ تطورها - محدودة وتقوم بتوجيه مخيلته باستمرار وتتدخل فى تكوين الاحتمالات والمتصورات .. نوعا وتركيبا وأحيانا زمانا ومكانا .. كانت مواجهة الآدمى لما يقع من الاحتمالات غير كاملة وإن كانت كافية بصفة عامة .. لكنها أحيانا تكون عرضة للنقص أو القصور أو الفشل، وهذا يشكل ما يسمى بالخطوط السيئة وأحكام المقادير .. ونحن جميعا نستقبل وقائع الحياة فى مراحل العمر - مزودين بمدد كاف من القدرات والإمكانات والاستعدادات - لكنه لا يكون كاملاً شاملا قط ولا هو كفيل بمواجهة كل احتمال يتحقق، وإذا صادفنا ما يجرى على غير ما نحب ونستطيع، ألفينا أنفسنا فى مأساة صغيرة أو كبيرة حسب أطرافها وظروفها، وغرقا فى لجة من الاضطراب والانفعالات يتعذر علينا فيها رؤية واضحة للصواب والخطأ والصدق والكذب والمعقول والأسطورى والجاد والخرافى - واختلط علينا هذا بذاك، وقد يشتد هذا الاختلاط ويستحكم وتتناقله الأجيال إن مسّ حيال الناس وصار من مصدقاتهم .

إن عالمنا الآن ملىء بالخيال والوهم وكان كذلك منذ وجد الإنسان وتكاثر .. لكنه بفضل قدرة العقل على التأمل - وهى قدرة مهما بلغت محدودة هى الأحرى - أمكنه ويمكنه وسيمكنه فى أحيان وأحوال كثيرة أن يفرق ويختار بين الحقيقة وبين الوهم والخيال، وأن يقف فى بعض الظروف بثبات وإصرار إلى جانب الحقيقة كما فهمها، وأن يدافع عن موقفه بكل ما معه .. وهذا معدود من مفاخر الإنسانية - لكن الإنسان لم يستغن ولن يستغنى عن حاجته وميله إلى الخيال والوهم، ولم ولن يحاول منع تفشيهما فى حياة الأفراد والجماعات - لأنه لايعيش فقط بفضل كونه عقلاً ولا بكونه مخيلة فقط، ولا بكونه عاطفة وميلا نحو نازعة، وإنما

عاش ويعيش بمزيج مناسب من ذلك كله، وهو ما قد يبدو غير معقول أو شاذا أو غير ممكن استمراره .

وهذا المزيج المناسب ظل إلى اليوم، وبصورة تكاد تكون تلقائية أو شبه عشوائية - يظهر ويختفى ويقرب ويبتعد، ومع ظهوره وقربه يكون ظهور الحضارة وارتفاع قيمة الآدمى، ومع ابتعاده واختفائه يكون الانهيار والهوان !!!

فهل يمكن أن يتكاتف عدد كاف من المستنيرين - فى العالم الآن - على الإهتمام المدروس المنظم المستمر بذلك المزيج المناسب ومظاهره وظواهره، لحماية الجزء السليم فيه ومحاولة علاج خلله وتنمية فاعليته وجذب المزيد من التفات الناس الواعى إليه ؟

ربما كان هذا يبدو بعيداً - عن طائلة الفلسفة أو طائلة الديانات، لكنه ربما كان قريبا من المستنيرين المهتمين بشئون البيئة ومسائل ومشاكل المجتمع البشرى وبأمور تربية الصغار وتعليم الشباب وإيقاظ الكبار .

وأياً كان الأمر - لنتذكر أننا نعيش على التصورات إلى أن نفارق الدنيا .. صغيرنا وكبيرنا، وجاهلنا وعالمنا، ورفيقنا وحضرنا - وهى تشكل أساطيرنا وحقائقنا وعداواتنا ومودتنا وحربنا وسلمنا وتواريخنا وحضاراتنا وكل دنيانا وكل أحرانا .. نعيش على التصورات فى عالم خال خلوا تاما منها.. عالم يستسلم فيه لحد ما، وقتا يقصر أو يطول، استسلاما يشجعنا على توارثها وبناء حياتنا نحن وذرارينا عليها، وبتنا نعتقد أن أرصدة تصوراتنا من بنية الكون لا تنفصل عنه، وأننا بفضل القدرة على التصور نتميز بنوع من السيادة على بقية هذا الكون الهائل، ولم تفلح حرائب ومخلفات الآدميين، ولا أبدان موتاهم ولا إبادة من باد منهم وطمس عمرانهم

وانطفا، نارهم واكتساح الرياح والرمال لمعالم ملكهم وسطوتهم وصيتهم - .. لم تفلح فى الحد من خيال الأحياء وزهوهم، ولا من اقتلاع اعتقادهم فى أنهم أصحاب مكانة ممتازة فى هذا الوجود وربما يسوّل لهم ذلك نجاحهم فى تصور بعض قواميس الطبيعة ونجاح ما صنعوه على أساس ذلك من نظم وأدوات ومعدات وأجهزة .. وهو نجاح حليق بالإعجاب، لكنه لايعنى قط أن تصورنا لهذه النواميس هو وحده التصور الناجح الملائم، ولا أنه يقين تصوير لمسلك الطبيعة ذاتها فى إبداع هذه النواميس كما نتصورها.